المحاضرة الأولى:

النثر العـــربي القديـــم

تاريخـــيا وجغرافيا .

مرَّتْ بالأدب العربي طوال فتراته الزمنية أجناسٌ أدبية مختلفة، شعراً ونثراً، منها ما استفادها من غيره واستمرّ في التعبير والإنتاج فيها ،ومنها ما ظهر واندثر وظل تاريخاً يُسجَّلُ في قائمة الأجناس الأدبية التي عرفها العرب في عصورهم المختلفة، والنثر العربي عموما مر عبر مساره الزمني بأطوار شتى هيأته لأن يتسم في كل طور بسمات معينة ،وفي هذه المحاضرة سنحاول تبين مفهوم النثر ، وسنتتبع حركة تطوره زمنيا مع ربط ذلك بالأقاليم الجغرافية التي ظهر فيها .

أولا : مفهوم النثر وأنواعه :

أ-مفهوم النثر :

أ-1 لغة : "النَّثْرُ نَثْرُكَ الشيءَ بيدك تَرْمي به متفرقاً مثلَ نثْرُ الحَبِّ إِذا بُذرَ، والنُّثارُ فُتاتُ ما يَتَناثَرُ حَوالي الخِوانِ من الخبز ونحو ذلك من كل شيء. الجوهري: النُّثارُ، بالضم، ما تناثر من الشيء".

وفي القاموس المحيط نجد :"نثر الشيء ينثره نثرا ونثارا :رماه متفرقا. "

ويبدو واضحا أن ما ورد من معان للنثر يدل على التفرق والكثرة والانتشار .

أ-2- اصطلاحا :

هو :"الكلام المطلق من دون قيد بخلاف ما هو عليه حال الشعر ،أو النظم من حيث أنه مقيد بالوزن والقافية".

ومن ثم فإن النثر شكل من أشكال الكتابة الأدبية يخالف الشعر في كونه غير موزون أو مقفى، يكثر فيه استخدام المحسنات البديعية، وله العديد من الخصائص الجمالية، ويكثر في معظم الأعمال الأدبية، يقول ابن خلدون :" اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم ...وفي النثر وهو الكلام غير الموزون ،وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام."

ب- أنواعه :

ب-1-النثر العادي : الذي يقال في الكلام العادي ،وليس لهذا الضرب قيمة أدبية .

ب-2-النثر الفني : هو النثر الذي " يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة "

ولو تتبعنا تاريخ الأدب العربي فإننا نلحظ ضآلة حظ الخطاب النثري في تراثنا النقدي مقارنة بالخطاب الشعري- بوصفه ديوان العرب - ،إذ استأثر الشعر بعناية الدارسين واهتمامهم على نحو لا نلمسه في النثر، فبقيت مساحة هذا الأخير نوعا ما ضيقة .

ثانيا : النثر العربي القديم : النشأة والتطور:

أ-النثر في العصر الجاهلي :

خريطة تمثل موطن النثر العربي في العصر الجاهلي

أختلف في تحديد زمن العصر الجاهلي خاصة في بدايته فهناك من رأى أنه الزمن الفاصل بين الرسولين الكريمين عيسى ومحمد عليهما الصلاة و السلام، إلا أنهم اتفقوا على أن نهايته كانت بظهور الإسلام .وقطع الدكتور شوقي ضيف بأن المدة حوالي قرن وخمسين سنة قبل الإسلام. أما عن المكان فكان شبه الجزيرة العربية الذي يعتبر موطن الأدب الجاهلي.

يجمع الباحثون والدارسون على أن ما روي من النثر الجاهلي قليل جدا بالنسبة لما روي من الشعر وذلك للأسباب الاتية:

–سهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقي خلافا للنثر.

–الاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها.

–قلة أو انعدام التدوين، والاعتماد على الحفظ والرواية، وهي ظاهرة يشترك فيها النثر مع الشعر ،فلا يوجد أي سجل أو كتاب مدون يحتوي على نصوص النثر الجاهلي يعود تاريخه إلى تلك الفترة من الزمن الغابر، إذ كان الناس يحفظونها ويتناقلونها عن طريق الرواية الشفاهية، مثل الشعر، وهذا ربما سبب قلتها، وكذا موقف الإسلام من بعضها (سجع الكهان مثلا) ،وبالرغم من ذلك فان الدارسين المحققين لهذا التراث الأدبي العربي ذكروا من أنواع النثر الأدبي في تلك الفترة خاصة بعض الأنواع منها:

الخطابة، القصص، الأمثال، الحكم، الوصايا، النثر المسجوع ، المنافرات (المفاخرات).

ونظرا إلى أن ما وصلنا من النثر الفني في هذا العصر قليل جدا ،فقد وجدنا تتضارب آراء الدارسين حول وجود نثر فني خلال هذا العصر من عدمه ،فلا يوجد إجماع ولا رأي موحد يمكن الإطمئنان إليه ،بسبب قلة ما وصلنا من هذا العصر ،وكذلك الشك الذي يحيط بالنصوص النثرية التي تنسب للعصر الجاهلي، لذلك نجد رأيين مختلفين في هذه القضية :

أ-1-النافون لوجود نثر جاهلي :

- ✓ **الدكتور طه حسين**: نجده يؤكد في كتابه: (**في الأدب الجاهلي**)أن العرب لم يتركوا لنا أية آثار أدبية نثرية البتَّة، لا خُطبًا ولا غير خطبٍ، فالنثر من جهة يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة، لم تكن متوفرةً في جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شيء من ذلك مكتوب. ويبرر إنكاره لوجود الخطابة الجاهلية اعتمادا على خُلو العصر الجاهلي من الحضارة والحياة المدنية الراقية.
- ✓ **الأستاذ الفرنسي مرسيه** :يشير رأيه إلى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية ، والحياة الأولية لا توجب النثر الفني؛ لأنه لغة العقل، لكنها قد تسمح بالشعر، لأنه لغة العواطف والخيال.

أ-2-المؤيدون لوجود نثر فني جاهلي :

- ✓ **زكي مبارك :** جاء حديثه ردا على رأي الدكتور طه حسين ،حيث صرح مبارك قائلا :"كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم ،وسلامة طباعهم ولكنه ضاع أهمها شيوع الأمية وقلة التدوين ."

- ✓ **السباعي السباعي بيومي**: في كتابه عن الأدب العربي في العصر الجاهلي، يرى أن خطباء العرب كانوا يَحفلون بخُطبهم أيَّما احتفال : "فيتخيَّرون لها من المعاني أشرفها، ومن الألفاظ أفصحها؛ لتكون أشد وَقْعًا على النفوس، وأبعد تأثيرًا في القلوب، وأيقَظ للهِمم، وأحَثَّ على العمل".

- ✓ **إسحاق بن وهب**: أفاض في كتابه :(**البرهان في وجوه البيان**)في الحديث عن الموضوعات التي كانت تدور عليها الخطب خلال العصر الجاهلي قائلاً: إن" الخطب تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نائرة الحرب - أي: نارها وشرها - وحَمَالة الدماء، والتسديد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الإملاك - أي: الزواج - وفي الدعاء إلى الله - عز وجل - وفي الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة)، ولكل ما أريد ذِكره ونشْره، وشهرته بين الناس".

ب- النثر في صدر الإسلام : استغرق هذا العصر ما يربو عن 53 سنة.

خريطة تمثل الدولة الإسلامية خلال الخلافة الراشدة

بظهور الإسلام وما أحدثه من تغيير شامل دخل النثر العربي طورا جديدا ولعل أهم التغييرات التي مست النثر أن توسعت مجالات استخدامه ،فقد أصْبَحَ النَّثْرُ بأنْواعِه أداةَ الدَّعْوةِ ولِسانَ الدَّوْلةِ الإسْلاميَّةِ كافَّةً ، ولأجل ذلك "اتسعت الخطابة اتساعا شديدا" ، إذ أصبحت وسيلة لنشر الدين والوعظ وبيان مبادئ الإسلام والحض على الجهاد والدعوة إلى مكارم الأخلاق وبيان خطة الحكم، وكان الرسول عليه السلام وخلفاؤه خطباء مفوهين، وقد دعا قيام الدولة الإسلامية واتساع سلطانها إلى الاستعانة بالكتابة والكتاب، وكانت الكتابة محدودة الانتشار جدا في العصر الجاهلي فاتسع لها المجال في صدر الإسلام وأقبلت الناشئة على تعلم الكتابة.وبذلك "تلون النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة وكتابة ورسائل وعهود وقصصا ومناظرات

وتوقيعات " ،أما اللغة النثرية فقد شهدت تطوّراً كبيراً في أساليب إيرادها إذ مالت إلى الإيجاز والوضوح والسهولة والبعد عن الإغراب ، إضافة لتأثرها بالأسلوب القرآني والنبوي والاقتباس منهما ، وأهم من هذا كله هي البعد الزخرفة والتنميق اللفظي .

ج-النثر في العصر الأموي :

خريطة تمثل الأقاليم الخاضعة للدولة الأموية

بلغت حركة الفتح الإسلامي أوجها في ذلك العصر، وقد استطاع الفاتحون أن يمدوا حدود الدولة الإسلامية في حقبة قصيرة إلى أقصى المغرب وإلى بلاد الأندلس ومشارف بلاد الروم، وامتدت فتوحهم شرقاً إلى بلاد فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند، فكان الفتح الإسلامي أسرع فتح عرفه التاريخ، وكان العرب الفاتحون حين يبسطون سلطانهم السياسي ينشرون معه عقيدتهم ولغتهم وأدبهم،

لكن اللغة كانت بحاجة لمدة زمنية غير يسيرة كي تستقر وتظهر معالمها في شكل آثار أدبية فنية ، لذلك فإن النصوص النثرية التي وصلتنا خلال هذه الحقبة لا تزال متمركزة في شبه الجزيرة العربية وبعض الحواضر كالعراق والشام هي موطنها ،ولا نجد نصوصا خارج هذه الأقاليم إلا ما ندر .

تأثر بشكل عام النثر العربي بالمناخ الفكري والسياسي والاجتماعي السائد ،حيث امتد ليشمل الجانب السياسي وبدأ يتأثر بالثقافات الجديدة التي دخلت إليه من بلاد الشام ومصر والعراق،

وتوسع بموضوعات الخطابة الدينية والسياسية، ورسائل الوعظ والرسائل الديوانية ،كما ظهر الجدل بين الفرق الكلامية ، فتلون النثر الأموي من جراء ذلك بألوان فكرية خصبته ووسعت آفاقه.

د-النثر في العصر العباسي : يعد العصر العباسي أزهى العصور العربية حضارة ورقياً، كما أنه أطولها زمناً، إذ امتد حتى سنة 656هـ/1258م.

خريطة تمثل الأقاليم المنضوية تحت الدولة العباسية

بعد التوسع الذي شهدته حركة الفتح خلال العصر الأموي ،كان الأقاليم المفتوحة بحاجة إلى الاستقرار السياسي وتمكين اللغة العربية بها ،وهو ما تحقق فعليا خلال العصر العباسي ، بناء على ذلك وجد للنثر في هذا العصر بيئات جديدة غير بيئة الجزيرة العربية -مهده الأول- فتلون الأدب بألوان هذه البيئات وتأثر بها، فكان لبيئات الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس أثرها القوي في الحياة الأدبية.

إضافة إلى ذلك فإن نشوء المراكز العلمية والأوساط الأدبية قامت بها حركة تدوين رائدة لم يكن لمثلها نظير فأصبح النثر تبعا لذلك أداة الإسلام في التأليف والتدوين العلمي، وكان له كبير الأثر في نشأة شتى العلوم الإسلامية، والعلوم العربية المساندة لها، فالتدوين جعل النثر يزاحم الشعر في مكانته التي تربع عليها طول العصور السابقة ،على أساس أنّ النثر هو الأنسب للحضارة والتمدن.

من جهة أخرى نلحظ أن موضوعات النثر العربي وأساليبه قد تطورت بتأثير من اتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغات العربية وازدهار النهضة العلمية والأدبية وكذلك الاستقرار السياسي، وتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للأدباء ، والسفر والانفتاح على ثقافات مختلفة وظهور حياة الترف، فكانت نهضة كبيرة في الأدب والعلم والفكر والفلسفة عموما والنثر خاصة .

هـ-الأدب في عصر الدول المتتابعة : من العسير تحديد أطوار الأدب في عصر الدول المتتابعة بسنوات معينة، لتداخل بعضها ببعض. ويمكن تحديد إطار هذا الموضوع بالحكم الذي ساد في كل حقبة من حقب ذلك العصر، وهي:

-1العهد الزنكي 521-579هـ/1126-1183م.

-2العهد الأيوبي 579-648هـ/1183-1250م.

-3العهد المملوكي 648-922هـ/1250-1517م.

-4العهد العثماني 922-1213هـ/1517-1798م.

خريطة تمثل الدويلات والإمارات

لكن هذه الحقبة الخصبة نسبياً لم تستمر في عهد العثمانيين، وإنما اتخذ الشعر والتأليف مسارا آخر، فيه من العقم أكثر مما فيه من الخصب.

ذلك هو الإطار الزماني، أما الإطار المكاني، فهو موطن حكم هذه الدول، وهو بلاد الشام ومصر، في المقام الأول، وبعض أرجاء الجزيرة العربية كالحجاز واليمن. أما ما كان خارج هذه البلاد في العصر العثماني فلا يدخل في إطار البحث، لأن المراكز الثقافية والفكرية والأدبية الكبرى كانت في أرض الشام ومصر في الدرجة الأولى، وعلى العموم فإن النثر في هذا العصر قد بدأ يتحول إلى صنعة وتنميق وغلب عليه الاهتمام بالشكل على حساب المضمون .

و-النثر في بيئة المغرب وبلاد الأندلس : كونت بلاد المغرب وشمال إفريقيا مع الأندلس وحدة ثقافية ذات طابع خاص جوهره ،فكان لانتشار اللغة وانتقالها بين البلدان ونشاط الحركة الأدبية والنقدية معها أثر واسع الكبير على النتاج النثري في هذه الأقاليم اكتسب معها خصوصية في كثير من المضامين والأساليب، وإن كان لتقليد المشارقة حظ لا يستهان به ،لذلك نقول بأن :إبداع أدباء المغرب لا يقل على إبداع المشارقة ،وهذا إن دل إنما يدل على عامل التأثير والتأثر بينهما، فساورا على نهجهم وخطاهم في التدوين والتأليف ،والجدير بالذكر أن أقاليم المغاربة أسالت الكثير من الحبر في مختلف الأنواع النثرية وتفوقوا في بعض الأجناس الأدبية منها أدب الرحلة والمقامات التي لعبت دورا كبيرا في ازدهار الأدب المغربي والأندلسي ،فالأندلس كانت تفد إليها الرحلات العلمية لأخذ مختلف العلوم من الفقهاء والعلماء.

خاتمة :

يتضح من خلال ما تقدم أن النثر بسبب بنيته الشكلية هو المقابل الفني للشعر .

كما تبين أن النثر مر بأطوار مختلفة تبعا لكل مرحلة فتلون بسمات كل عصر وبيئة ،ففي العصر الجاهلي لم تصلنا نصوص كثيرة لغياب التدوين ،أما صدر الإسلام فقد توسعت فنون النثر وأساليبه لمقتضيات فرضتها الدعوة الإسلامية ،وفي العصر الأموي شهد النثر قفزة نوعية إذ ترسخت أصول فنية لبعض أنواعه كالترسل،كما كثرت فنونه وتشعبت أساليبه، وقد بلغ النثر خلال العصر العباسي من الرقي ما لم يشهده عصر آخر نتيجة التطور الحضاري والثقافي ،أما بلاد المغرب والأندلس فقد شهدت هي أخرى حركة أدبية قوامها النثر الذي حقق خصوصية وتفردا في بعض مواضيعه وأساليبه ،وسار على نهج المشارقة في مواضيع وأساليب أخر .

بدأ الضعف يدب في فنون النثر خلال عصر الدويلات والإمارات ولا نجد جديدا في هذا العصر .

<u>مراجع المحاضرة :</u>

إسحاق ابن وهب: البرهان في وجوه البيان ،تحقيق حفني شرف، مطبعة الرسالة، 1969م.

شوقي ضيف :الفن ومذاهبه في النثر العربي.

طه حسين :في الأدب الجاهلي ،دار المعارف ،مصر،ط4.

زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

السباعي السباعي بيومي :تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ،مطبعة العلوم ،مصر ، 1934.

شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي .

أحمد محمد ويس :ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي ،منشورات وزارة الثقافة، دمشق ،2002.

ابن خلدون : المقدمة ، تح حامد أحمد الطاهر، دار الفجر ، القاهرة، ط1، 2004.

ابن منظور (محمد بن مكرم) :لسان العرب ،دار صادر ، بيروت ، ط3، 1414ه .

الفيروز آبادي: القاموس المحيط ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1، 1986.